يوم مصري جاف..

قصة بقلم محمد المنسي قنديل

الصبح ...

حقول القطن شاسعة ومضيئة .. وغباشي هائج وسط البنات .. زعقت خضرة . نزعت نهدها اللين المنكور من بين اصابعه ..

ـ اصرخ .. اجمع عليك البلد والله ..

ضحك غباشي .. انسال خيط رفيع لزج على شفته السفلى ... رفعت هي احد اعواد الحطب مهددة :

ـ سأقول لابيك.

ضحكت بقية البنات ، لكنهن ابتعدن حذرات ..

الشمس مائلة ناحية الشرق ، تنزف صهدا وحنينا ورغبة . ينهض صبح اليوم الغريب ملوثا بكل احزان الايام الفائتة . بدرية تسير وحدها على الجسر الترابي المبلل .. شاهدت الاب العجوز جالسا تحت شجرة الجميز . على كتفه « الحرام » الصوفي الثقيل. يخفي تحته وهن البدن وجروح الايام . وجهه متغضن وشارد . الافق بعيد مشبع بالانتظار والزرقة . لم تكن المرأة العجوز بجانبه . لعلها ذهبت لقضاء حاجة ثم تعود . يلتصقان معا ويشردان بعيدا ..

سارت بدرية . هم الصباح ثقيل . البيت مقفر . سرير الزفاف ما زال يحتفظ بنصاعته صورة الغائب شاحبة فوق الجدار .الجاموسة العشر ترامق الجميع في حذر وتتوارى كلما اقترب احد من بـــاب « الزريبة » .. والحمام يهدل في اسف .. بدووور . بدوور . الكلاب منزوية بعد ليل ارق . وضعت بدرية يدها فوق ظهر الجاموسة . احست دفئها الخصب يتسرب داخلها . فردت اخر ما وصلها من خطابات . كانت تعرف القليل من الكلمات . لمحت اسمها في السطر الثالث والعاشر . ثم لمحته مع اخر كلمة . ولم تفهم غير ذلك شيئا . ثياب غباشي ملقاة في الركن . يرعى فيها قمل الصيف الباهت . تظل هكذا دون مساس حتى يأتي غباشي . يلوكها في الماء يعصرها حتى توشك على التمزق . تقوش الزفاف فوق الجدران لكن حناء العرس وفرح القلب ذهبا بلا عودة ..

قال الريس عبدالمنعم ..

ـ يوم اغبر .. لن نجمع شيئا في نهارك المهبب ..

القى غباشي البنت خضرة فوق الارض . برك فوقها . ادخل يده سريعا في فتحة الثوب العليا . جذبه الريس عبدالمنعم بعيدا .نهضت البنت في تكاسل . لم تتكلم لكنها كانت على وشك البكاء . سبقتها بقية البنات وبدأن في جمع صفوف جديدة .. ابتعدا معا . لم تبال او جاء لو ذهب لو حتى برك فوقها . كان صدرها ممتلئا بالجروح الصغيرة والكيماوي يلهبها .. واصل الريس عبدالمنعم ..

ـ يا غباشي عيب . الانفار يا أخي. العام القادم لن نجد من يجرؤ على الجمع عندكم ضحك غباشي . اشار الى فرص الشمس .

ـ بز البنت . بز البنت .. هيه ..

ابتسم عبدالمنعم لكنه ظل متضايقا

ـ عيب والله .. اخوك لم يكن مثلك ابدا

وقفت بدرية على رأس الحقل . اشار الريس نحوها ..

ـ آه يا ست بدرية . غباشي لا يريد ان يهدأ ..

تراجع غباشي . شملت جسده الفحل رعدة طفولية خائفة .وعين بدرية عليه في دهشة .. واستغراب .. كل شيء كما هو . القطن والحقل والبنات وغباشي واحداث كل يوم .

ـ يطارد كل بنت .. تصرفي معه ..

افلت غباشي من يده . جرى سريعا واختفى بين الدغل الابيض. ضحك عبدالمنعم بصوت اجش .

ـ عيل والله .. عيل

ضحكت دون بهجة ..

ـ بخاف منك . جد والله ..

تكلمت للمرة الاولى منذ الصباح ..

ـ لا ادري .. يخشى كل شيء .

ـ كذا .. يخشاك انت فقط . لا يخشى آخر في البلدة كلها .. حتى ابوه ..

دون وعي قطفت يدها بضعا من زهور القطن . ضمتها لصدرها في بطء . كان عبدالمنعم يتكلم وبياض الزهر الحزين يشدها بعيدا الى وشي البحر الساجي على رأس الغيط . والسرير الخالي في الليل الطويل ..

ـ حزينة يا ست بدريه ..

اصبح قريبا منها ..

ـ الم تصلكم اخبار بعد (اشار في اتجاه غباشي) .. اخوه والله لا يدري باي شيء . قالت لنفسها غباشي اخو يوسف . يوسف ذهب وغباشي باق . القرية برجالها وبيوتها وبهائمها ويوسف غائب. غباشي اهبل يخشاني ويخشاه الف رجل . وعبدالمنعم يتكلم ..

ـ ظلمت نفسك بهذا الزواج يا ست بدريه ..

التفت اليه . ملامحه تتشكل داخلها . الوجه والشارب والطاقية. الاسنان الصفراء من اثار العسل والشاي الثقيل .ملامحيوسف باهتة. تهب ريح البوار عبر زهور القطن واشواك الحطب . يد عبدالمنعم تقبض على ذراعها . تلتف حولها . توشك ان تلمس بظهرها حافةالنهد. ارتعدت لحمها ينضغط والكلمات تتحول الى نبض لاسع ..

ـ زمان يا ست بدرية .. كنا كلنا صغارا ..

كفه فوق شعرها . الشمس غامقة . الانفار يتضاحكون بعيدا .عين الجاموسة العشر تمتلىء خوفا . الاب العجوز يحدق في الافق ويوسف هل حلق شاربه كما قال في المرة الاخيرة .. اي نوع من النساء يعاشر ..؟.. نزعت نفسها واجهته بشراسة ..

ـ الله يا ست بدرية

جرت . تخزها العيون والاشواك . تلهث والحقل ابيض كالسهام. تلاحقها الاسنان الصفراء والشارب الكث . ماذا يجدي الجري عندما يخط ليل أشتاء الطويل ..؟.. تكسرت الاعواد تحت قدميها ..والنهر ساج كالحلم .. تهب رائحته الندية . تراجع كل شيء خلف ظهرها اصبح بينها وبين الجمع مسافات لا حد لها من الاشمئزاز ..

على حافة النهر هدأت فجأة . استكنت جنب صفصافة وسط دغل من الحشائش تحجب كل شيء عن الطريق . الماء يسرح ناعما يقشعر عن موجات بطيئة متكسرة . لم تعد بحاجة للبقاء . ذات لحظة سوف يأتي يوسف من خلف انحناءة النهر . انتظرت طويلا يا بدرية . البسي قميصك الاحمر. واغسلي كعبيك وهلمي للعشاء .. كانت الريح تغمغم .

سيأتي ولن يعود ثانية .. ثانية .. ازاحت طرحتها . فكتمنديل الرأس . انفرد شعرها الطويل الناعم . مالت برأسها كغصن صفصافة لين وغمسته في النهر . تصاعدت داخلها نشوة مرتعدة . ازداد تنفسها وظلت تحدق في الماء وتشم رائحته . وهي صغيرة ضربتها امها اكثر من مرة . لم تنس بعد طعم المتع الخفية الصغيرة. والنهر يسرح بعيدا ضاحكا . ترفع رأسها . تزيح الخصلات المتهدلة ويتساقط حب المطر . عصرته . كومته فوق ظهرها . واجهتها السماء الواسعة والسحب الهشة .. قالت .. سوف يأتي يوسف راكبا سحابة ..

تبدد السكون . صوت نشيج خشن . رفعت راسها . غباشي يتخبط وسط الحشائش . فوق وجهه غبار الكيماوي الابيض القاتم . يدعك عينيه ويبكي بصوت عال . اقترب منها. تهضت واقفة ..

ـ ولد يا غباشي .. مالك يا ولد ..؟..

توقف خائفا . لم يحدد مصدر صوتها . اقتربت منه . امسكت يده .. مالك يا ولد .. هه .. نهنه بصوت باك :

ـ البنت خضرة .. الكيماوي ..

تألم لدرجة انسته خوفه الغريزي . كانت متبرمة ضجرة .

ـ حمار وبغل .. وتترك البنات يفعلن بك هكذا ؟

ازدادت حدة بكائه .. قادته للنهر .. نهنه :

ـ والنبي لا .. البنت خضرة ..

ضغطت رأسه . غيبته دقيقة في الماء . رفعه فزعا . حاول التملص ولم يستطع . انفجرت هي ضاحكة فجأة .. ضغطت اكثر من مرة .. وهو يغمغم لاهثا :

ـ والنبي لا .. بدرية لا..

يدها تقبض على شعره .تحسخشونته . يسري داخلها نبضجارح. هذا الولد الاهبل القذر الرائحة . لو انها تملك ان تلقيه في النهر يتخلص جسده من هذه الاوساخ وتذوب بلاهته .. ظلت تضغط راسه وتضحك . هذا الانف انف يوسف . نفس انف الام العجوز . تركته. ارتد للخلف غير مصدق . تخلص وجهه من الكيماوي . بدأ نظيفا كما لم تره ابدا من قبل .. فتح عينيه .. كأنما كانت ترقب هذه اللحظة . تأملت سوادهما الداكن واطراف الرموش القصيرة .. الحاجبان يكادان ان يتصلا والشفة المتدلية بلا لعاب هذه المرة وصوت النهر مبحوحا عميقا متواصلا . وحقول القطن تتشابك متعانقة . وضعت يدها فوق وجهه . تحسست آثار الماء . بحثت عن كلمة تقولها .. راقبها خائفا مبهورا .. انت يا ولد يا غباشي . ماذا غير طعم اللحظة ؟ الصفصافة تغمغم . الماء ينسرب خلال اصابعها .. جلد وجهه دافىء .. حي .. جلد يوسف بارد كالموت . وهي لا تهرب . تعطي نفسها فرصة تفكير اطول ..

قال الولد غباشي فجأة ..

ـ بدرية .. ابويا .. امي .. والبنت خضرة .

شفتاها فوق جلد وجهه . تنقبضان عليه . غمغمت دون ان تفلت ثمة الجلد . يا أهبل يا ابن الكلب . يا أهبل يا ابنالكلب.انفاسهتدخل انفها . رائحته ثقيلة تملأها حتى النخاع .صدره ناعم.ليسبه شعر لكنه محدد العضلات . تحسسته باصابعها وباطن كفها .. نبض قلبه .. رفع يده . وضعها فوق كتفها . ثقيلة لكنها تذوب تحتها . تتراخى . ما راودتها هذه الخواطر يوما ولا تخيلت هذه اللحظة . لكنها كانت في اعماقها .. تنمو عبر ليالي الوحدة ولحظاتالجفاف .. ادخل يده في فتحة ثوبها . قبض على نهدها المتكور في فرح ، لم يصدق انها لا تقاوم . ولن تهرب .اعطته الطراوة والنعومة الدافئة احساسا غامرا بالبهجة .. امسك الحلمة المتصلبة المشدودة . فركها بين اصابعه .. انتفضت . نهضت واقفة ..

النباتات الشيطانية على الشاطىء تكون سياجا عاليا .. الارض ممتلئة بالقواقع الضالة وقطع الزجاج الصغيرة اللامعة .. والطائر الوحيد الذي كان يقف فوق غصن الصفصافة شاهد ما جرى ثم اندفع وسط قرص الشمس . دون صوت .. دون ان يستطيع البوح.. وشيش ماء عاقر متجهم . منحن غامض .وشفتاها تفتران عن ابتسامة غريبة . خلعت ثوبها . فردته على الارض . خلعت قميصها . اصبحت عارية تماما . جسدها الابيض فارع يتضوع في الشمس . فكر غباشي .. عندما تكون مرتدية ملابسها تكون نحيلة . مد يده في تبتل ... تحسس فخذها صاعدا الى اعلى .. مستديرا مع انحناءاته . ادرك انها تختلف تماما .. عن جاموستهم العشر وعن الحمارة .. وعن البنت خضرة .. نامت على ظهرها . اشتم رائحة جسدها الحار مختلطا برائحة البحر .. دون صوت ايضا . خلع جلبابه ..

لو مر عابر على جسر البحر ..فلاح او دابة لرأى جسديهما . لانه في تلك اللحظة ذهب كل شيء بعيدا . خفتت انفاس الارضالمتداخلة. سكن الماء سكونا مطبقا . كفت الصفصافة عن الوشيش . وغباشي يغرق في جسدها .. يكتشف كنوزه .. يحط .. ويرتاح .. من اجساد نساء القرية المتعبة التي افترسته قديما ولم تعطه شيئا . الاطفال يسعون خلفه يقذفونه بالحجارة .. جر البهائمالابله . وبطن بدرية مثل قبة السماء .. يضع اصبعه في صرتها ويديره .. ثم يلتصق البطنان .. يلتحمان في عرق ساخن . فمها ينفتح وينغلق طالبا المزيد . جسدها يقبض عليه يجعله طوعها . كانت فوقه وكانت تحته وكانت بجانبه .. وكانا بعيدين عن الجلباب وجسداهما بلون تراب النهر . تخزهما القواقع الضالة وقطع الزجاج .. يلوي شعرهاعلى يديه .. يصعد ويهبط كأنما الشمس تتأرجح .. بدأت تضحك .. ضحكا ناعما متهدلا . خفت حدة اللهاث . وبدآ يمارسان طقوس اللعبة في انسياب عذب . كان ما يزال هناك وقت للبحر والصفصافة

والطيور العابرة ليشهدوا كل شيء ويكسبوه شرعية غريزية . كانت تضحك لان طعم التراب المبلل كان حلوا كذلك وخز القواقع وحفيف الاشواك .. وكان هو يضحك لانه وهو فوقها .. فوق اعلى كومة سباخ في البلد . وقامته اعلى من المأمور والعمدة وشيخ الغفر . ولانه لا الاب الذي يذهب بصره . .ولا الام المتفضنة . ولا يوسف لو جاء ذات ليلة . لا يقدرون على انتزاع هذا الجسد الحي النابض من تحته .. اخذا يضحكان معا .. يتلامسان في نعومة .. والتصق الضحك بالتراب والماء . وبدأ الهواء يمر من جديد .. ولم يزل هناك وقت..

ومن بعيد من فوق سطح منحنى النهر الغامض .. انساب صوت اجش عميق ملامح مسافر يغني عن الزمن وفرقة الاحباب .. ملامح صعيدي عجوز يأتي صوته متكسرا عبر موجات النهر .. توقفا عن الضحك .. انصتا .. قالت فيخوف حقيقي ..

ـ يوسف ..

التصق الاسم ايضا بالماء والتراب . ازداد ارتفاع الصوت . تحول خوفها الى رعب غامر مفاجيء .

ـ يوسف .. يوسف .. يوسف ..

دمدم غباشي .. لم يكن يضحك . ولم يكن يتاوه . صوته غريب وحركته فوقها تزداد تشنجا . دوى الاسم يغمر كل شيء .. بلاوعي ظلت ترده وصوت الفرقة والزمن الغادر يقترب . حاولت ان تدفعه من فوقها . تكف عن ترديد الاسم .. لكنه عاد يلهث كأنه كلب عطشان .. يدمدم ويغرس اظافره في لحمها .. يدعكها في الارض بقسوة .. صرخت .. رددت .. يوسف .. يوسف .. تعالت كل الاصوات.الملامح المسافر . صوت البنات . الانفار . وخرجت اظافره ملوثة بالدم . نهض واقفا . رفع كفيه الى اعلى يريهما للشمس كان جسده فارعا قاسيا . زعق مرة اخرى ثم انطلق يركض .. عاريا.. وسط الحقول..

*

الظهر ...

في توت . يعتدل الليل والنهار . يزدهر القطن ويتفتق متوهجا ناصعا . تنمو عيدان الحلبة الخجلى . تطلق فحول الاغنام .. يحصد الارز . تتوالد الاسماك . يكثر الليمون . ويكثر الحزن ايضا ..

في ظل شجرة الجميز العجوز ـ على الطريق ـ ما زال جالسا. ما تزال الام بجانبه ينظران للافق البعيد دونما تحديد .. تأخذالايام كل حين طابعا جديدا .. تتوالى روائح الزرع والقلع والحصاد .. والانتظار هو نفس الانتظار .

قال الرجل العجوز :

ـ انا بردان ..

احضرت المرأة عباءة اخرى . وضعتها فوق كاهله . ازداد انحناء. التصقت به مرة اخرى . سألها عما امامه . قالت لا شيء . عيدان الحطب الجرداء والارض الخالية تنتظر البرسيم .. سأل ولا احد قادم .. لا .. لا احد قادم .. قال في تأكيد ..

ـ حان ميعاد قدومه ..

قالت بأسى .. حان ميعاد قدومه اكثر من مرة .. منذ ان ذهب لم يعد ..

غبار الظهيرة كثيف .. يشكل اطياف الاهل والاحباب . ويوسف بعيد . خلف افق يتراجع كل يوم . يغيب وسط الكلال . ذهب منذ زمن . في اول امشير . تماما بعد مولد النبي . لم تكن الذرة العويجي قد كبرت . لم يزرع القرع . لم تنتم بعد ازهاره الغريبة النفاذه . شاهد اخر اعراس الاشجار ... امشير يا ام يوسف . خضرة وغيره بلا حد . امطار جارحة كالدموع .. ورع كالوجد .. قال الرجل .

ـ الان .. لا ارى الافق . الان تنتهي حدود البلدة عند حافةالترعة. الان لو جاء يوسف واخذني في حضنه لا اراه . لا ارى ان كان يبكي ام يضحك ..

الام صامتة .. تعشق كتلة العظم . وسط هذه اللفة من الثياب الفضفاضة . تعشق ايامه القريبة والبعيدة . عندما كان يخطو تهتز اركان البيت . وعندما يعلو لهاثه وانفاسه المتحشرجة .. لان الايام التي مضت لا تعود . ولانه رآها ذات شهر بعيد اسمه يؤونسة ..كانت مياه النيل فيه داكنة .. داكنة كالدم .. ثم تفيض كالحيض . تسللت اعواد الارز الخضراء . ترتجف تحت الشمس القاسية . كان الليمون صغيرا .. والنحل لا يكف عن الحركة .. والحرارة تتفجر في كل الابدان . والقمر كان بهيجا لكنه ما لبث ان تغضن وركبه الهم وسط السماء السوداء ..

يمر العمدة . يمر شيخ البلد .. والغفر . ولا احد يلقى السلام. ولا ولد ولا ظل . لم يعد احد يصدق ان يوسف سوف يعود .. وسيعاود زراعة القطن .. وتكون شجيراته أعلى ما في البلد ..

ـ سوف يحضر يوسف الدواء ..

قالت العجوز

ـ اجل .. سيحضر الدواء .. وتعود سليما معافى .

ـ ليته يعود قبل شهر طوبه .. قد لا يمر علينا هذا الشهر ونحن احياء ..

رغم ان ما زرع في هذا الشهر لا يخيب . مات طفلها الثالثولم تعقب .. عبرت ريح العقم القرية تزوم رحيلا وموتا .. يومها كان يوسف يستعد للسفر الطويل . خلع الجلباب الازرق . رمى الفاس. وضع يده فوق كتف غباشي واوصاه .. لكن غباشي ضحك ولم يفهم شيئا .. لم يشتل البرتقال . لم تشتل القشطة . وكان القطن بذورا ضائعة يتيمة في رحم الارض الجائعة الشبقة . قال شيخ الجامع. في مثل يومنا هذا مات عمر بن الخطاب وختمنا عامنا الهجري. جعله الله مغفور الذنوب . نبتت زهور الطماطم ورحل يوسف ..حمله القطار الغريب الى بلاد اشد غرابة .. وعندما جاء هاتور كانت بدرية لا زالت تبكي . حلقت طيور السمان تحكي عن الوعد الذياخلف. غرس الاب غصن صفصافة على رأس الحقل .. هذه شجرة يوسفحتى يعود فترخي شعورها الطوال على كتفيه . انتهىغباشي من زراعة القطن .. ازاحت بدرية الغبار من فوق اثاث الغرفس للمرة العاشرة. تركت السوير ذا الملاءات الناصعة واصبحت تنام على الارض .. ملأت اشتال البصل الارض حتى الافق . نصب الصيادون شباكهم . رف السمان ثم وقع ولم يأت يوسف .. قالت بدرية : « القسمة والنصيب » . ورأت غباشي يفعلها مع الحمارة فارتجت بعنف . ظلت تقيء حتى نظرت لها الام العجوز في شك وشعرت بدرية بالاشمئزاز حتى من رؤيته . انهد حيل الاب العجوز تحت شجرة الجميز .سيأتي اليوم . اللحظة .. وجاء يشنس واهنا . بدت البلدة اشد كآبة واصفرارا . ازهرت النباتات الشيطانية على حوافي الترع والمياه الركدة الوانا وحشية صارخة . ظن النحل يبحث عن غذائه الخاسر .. وفي كل مكان تفتحت اكاليل السنابل فى بهاء لا حد له .رحلت بدرية الى اهلها وعادت بعد اسبوع . رأت اباها وامها واخواتها ولم تقص عليهم شيئا .. لانه لم يكن هناك ما يقال . حلمت بغباشي يفعلها مرة اخرى فنهضت في منتصف الليل وظلت تقيء في الزريبة والجاموسة ترقبها حذرة . امتص الارز كل ما عليه من ماء . تفتحت ارحام الارض فجأة تفي بمواعيد غرسها .. وظل الافق البعيد موحشا :ـ

قال الرجل العجوز فجأة : ـ

ـ سوف يتوقف قلبي يا ام يوسف..هل تسمعين اي خطو ؟

قالت بسرعة .. لا .. لا احد ..

لكنها احست ان هناك شيئا ما .. لعله يتخلق الان فقط من شواظ الشمس وغبار الظهيرة .. من الحقل البعيد تناهت اصوات وضحكات . هبط الهواء الحار . اصبح ثقيلا .. تقترب الاصوات بلا تميز . هذه اللحظة يهتز الافق وتتداخل الوانه .. قال :

ـ انه يوسف .. احس انفاسه .

حاولت المرأة ان ترد . لكنها ظلت مشدودة بكيانها نحو الطيف المجهول . تسمع كلماته ولا تعيها .. تنفرس داخلها ابرا محماة .. الاب يهتف بصوت عال . حاول النهوض لم تساعده الام . سبها وسب كل شيء . اشار الطيف اشارته الاخيرة المتتابعة ثم اختفى خلف حاجز الحطب .. وقال الاب :

ـ لم يكن يوسف ..

وانفجرت الام في البكاء . وكانت تحسب ان كل ما فيها قد جف تماما . لكن الدموع انثالت ثانية ..

الليل ...

وضع الجندي كفيه حول فمه . زعق ..

ـ يا ريس .. س ..

تكسر الصوت فوق وجه الماء المتفضن . استقى الليل الداكن الصدى . الضابط يقف جنب العربة . عصبيا لحد الانهاك . فشل في اشعال سيجارة . توهج الضوء لحظة كاشفا عن نباتات الشط والشجر ووجه الجندي الذي بجانبه .. وعاد الصوت المبحوح ..

ـ يا ريس .. س .. س .. س ..

زام الموتور . رفع الضابط يده خشية ان تتحرك العربة فجاة .. لكن الجندي السائق اشعل المصباحين الاماميين .. انفرد الضوء فوق سطح الماء وكانت السماء والنجوم والشط الاخر بعيد تماما .. الجندي يردد عبر الهواء والصدى :

ـ يا ريس متولي .. يا ريس .

الضابط .. اربعة جنود . السيارة .. السائق . وصندوق طويل ملفوف . ورحلة مضنية منذ الصباح . بلاد تلد بلادا . وارض شراقي على امتداد البعد . والسيارة تلهث بهم . تتوقف على طرف كل بلده . يصدم ناسها السؤال ويصدم الجنود الجواب . شرقا وغربا والموت واحد . سبحان الذي وهب وسبحان الذي سلب . ومن الشط الاخر تعالى الرد يمزق الظلام ..

ـ جـاااي ..

تنهد الضابط بارتياح . (اطفأ الجندي الذي بجانبه سيجارة). تراجع الجندي الاخر من امام الشاطىء . نظر للضابط قال تمام يا فندم ، دون صوت ارتفع الماء من الجانب الاخر .. وبدأ «جنزير» المعدية يزوم ... تحركت كتلة الظلام. شاهدوا المصباح الزيتي يرتعد فوق قمتها ولا يكشف شيء . بعثت ضجة الماء بعض المؤانسة في الجو الثقيل . صوت الريس العجوز يردد ادعية مجهولة .. ببطء دخلت المعدية منطقة الضوء . بان خشبها المتآكل والطحلب الاخضر جاثم فوقه ، بانت ايضا الكلمات الركيكة الخط فوق مقدمتها «سيرى بامر الله» ارتفعت منطقة الضوء حتى شملت جسد الريس الفارع وهو واقف جنب الدفة . يحلق فيهم بقسوة هنا هيه . تقدم الضابط حتى اصبح في مواجهته . مسح عرقه . لبس الكاب واعتدل .

قال الريس دون ان يبالي به :

ـ تاخرتم . كنا في انتظاركم منذ الصباح

اشار الضابط للسيارة :

ـ ضللنا الطريق .. دخلنا اكثر من قرية ..

تراجع الريس . اشار الضابط للجنود . ذهبوا لمؤخرة السيارة. اشعل اكثر من عود ثقاب حتى صعدوا واحاطوا بالصندوق الوحيد الثاوي . وبدأوا في رفعه . صدرت عنهم انات ضئيلة . احسوا فجاة كانهم جرحى ينزفون منذ الصباح . وكان كل قرية دخلوها ، بطريق الخطأ ، تركوا فيها قطرات من الدم ..

حملوا الصندوق لمقدمة المعدية . وضعوه فوق احد المقاعد .جلس اثنان على كل جانب . وجه الريس صلد . يتراقص لهب المصباح قريبا منه . يكشف عن لمعة العرق فوق التجاعيد الغائرة اطفاالسائق مصباحي العربة . ساد ظلام الموت الرطب .اصبح الجميع فوق المعدية . لم يتحرك الريس . ظل مستندا فوق الدفة . جذب احد الجنود « الجنزير » المبلل .. ارتفع صوت انينه . .وتحركت المعدية نحو الشاطىء الاخر ..

تغير ايقاع كل شيء . الجنزير .. همهمات الماء الكئيبة .تكاثف ذرات الظلمة . هبطت من اعلى روح بريئة موحشة قردت جناحيها وحطت وبدات تراتيل النعي الطويل ،تتشابك مع الريح وتمد نشيجها حتى ظلمة الشط الاخر . هبطت فوق جراحهم كالملح اصبحت التيارات الباردة فاترة ممضوغة .كرجيع البكاء والتاوه .. سال الضابط سؤالا متقطعا لم يفهمه احد . لم يكن الشاطىء يقترب فقط . كان يطبق . يزمهم اليه . قال الضابط خائفا ـ ما هذا ـ ؟.

اصطدمت المعدية بالشاطىء الاخر . ارتجف كل شيء . نهض الجنود قال الريس :

ـ اهل البلد .. في انتظاركم منذ الصباح ..

اكتشفوا في الضوء الواهن عشرات الوجوه .. متراصة كاحجار قاع البئر . تخفي الظلمة كل ما عليها من تعبير الكراهيةوالخوف. بلد غريب . نفس واحد . هم واحد . توقف الضابط والجنود صامتين . وظلوا هم ايضا صامتين . واصبح كل شيء قاتما ثقيلا. انحنى الجنود على الصندوق يحاولون رفعه . انفجر الجو فجاة بالهمهمات . اطلقت امراة ذات صوت نحيف حاد نعيبها الاول :

ـ يا خويا ..

شحن المكان بالغمغمات والتاوهات والبسملة وادعية الاستغفار. هتف الضابط في عصبية :

ـ ضوء .. اي ضوء

انسلت من بين الجموع امراة سوداء . خرت على الصندوقوهي تتشنج . اوشكت ان تسقطه من الايدي . ازاحها الجندي وقد فقد توازنه . قال نفس الصوت الحاد البعيد :

ـ يا خويا .. يا شمس وقمر ..

قال شيخ ضخم ملتح :

ـ انا العمدة . تفضل يا حضرة الضابط تاخرتم ..

الضابط يتكلم مرعوبا . الجنود يحملون الصندوق والاهالي يمجون حولهم بحركة غريزية دون هدف .

زعق الشيخ القفر ..

ـ وحدوا الله يا بلد !

قال الضابط

ـ اين ابوه وامه ؟

اشار العمدة نحو الظلام .. هناك .. بدأوا في اشعال اضواء الكلوبات . تراجعت الظلمة ببطء . بدت الموجة اشد حزنا وتعاسة.. فكر الضابط . ليل البلاد الغريبة اكثر قوة .. اشار العمدة نحو ابويه . الام العجوز والشيخ المقوس المهدم يحاول عبثا الانتصاب فوق عصاه تناول الضابط اليد المعروقة .هزها ببطء حذر .. قال :

ـ قلبي معكما .. كان من احسن رجالي ..

ثم تكلم كلاما غريبا . عن بلد اسمها مصر . وعن ارض لا تموت. وآلهة قدامى تطلب القرابين واعراس الدم والخضاب .. تكلم عنرفعة

الموت وعناق الارض . والبذور الضئيلة حين تطرح اشجارا معمرة ونخلا . وعن الآلهة المسحورة عندما تنهض بعد الظلام ، لتبعث الشروق فوق جبين هذا البلد الذي يدعى مصر .. قالت المراة العجوز:

ـ انه لا يسمع يا بني .. لا يسمع ..

تقدم حملة الكلوبات المسيرة واصر اهل البلد على حمل الصندوق بعد ان كشف الضوء عن الوانه الثلاثة .. وسار الجميع في طريق المقابر خارج القرية .

قال العمدة :

ـ انت والجنود ضيوفي الليلة .

لم يرد . كان تعسا . انكفأ الاب العجوز . اعانته الام العجوز على الوقوف . واصلا السير .. فكر الضابط ثانية . انه لا يدري بالفعل حقيقة ما حدث . بدأ ايقاع الولولات يشق الليل وينشر ظله البدائي فوقهم وفوق الزروع ..

ـ ابكي عليه سنة .. وبعد الـ سنة سنة

وطول العمر لا تشوفي هنا

اقترب فلاح غريب الهيئة .. الوحيد الذي يرتدي جلبابا ابيض، سأل الضابط باهتمام :

ـ هل مات في الحرب حقا..؟

التفت الضابط اليه فزعا :

ـ ماذا ؟

لكنه اختفى وسط كتلة الرجال . فكر الضابط : انهم يحملونني ذنبه . قال العمدة ينهي الحاشه :

ـ آسف ، لا بد ان ننصرف هذه الليلة .. هل المقابر بعيدة ؟

الجنود الثلاثة حيارى كاليتامى . يسيرون وحدهم احيانا .واحيانا وسط الجمع الحاشد ، صامتين كالموتى . واحيانا يتكلمون كانما يدافعون عن قضية خاسرة .

ـ كان زميلنا .. وكان اعز :صدقا .

وكان يوسف بكائيه حارة ، وروحا بريه فلقة ، وصندوقا على طريق معفر .. وكان سؤالا عبر عشرات القرى الفقيرة الجائعة ..ورحلة بلا عودة ، كان ابا ينكفيء ، وسرير زفاف خاليا . واما تترقب خطى الموتى . نظر الضابط ناحية الاب العجوز الذي كان يقول :

ـ اود الجلوس قليلا . بردان . غطيني ..

اشاح الضابط بوجهه .. حدق في العمدة بصلابة . . لم يتوقف عن الكلام والمجاملات .. اوشك ان يصرخ فيه .. واصبح البحر بعيدا خلف الرجال التعساء والنساء والاطفال والمقابر لم تظهر بعد .. قالت الام العجوز :

ـ لا تقف ـ سنعود معا .. سنموت معا ..

نظر الضابط فزعا للعمدة :

ـ هل كان ابنهما الوحيد ؟

اجاب بلا مبالاة :

ـ هناك ولد اخر .. غباشي.. أهبل .

التفت للخلف فلم يجده .. قال للجنود :

ـ لولا ستر الله لذهب كل شيء .. لكنه كان بطلا ..

المقابر فوق ربوة عالية .. احسوا بالضآلة وهم يصعدون المنحدر. وقف ثلاثة من الحفارين . حدقو فيهم بعيون فارغة ..

سكون ثقيل مرة اخرى .. وضع الرجال الصندوق جنب الحفرة وتصلبوا .. كفت النسوة عن النواح وكفت الريح عن الهبوب ...تقدم شيخ عجوز مهلهل الثياب .. اوقفه الصبي الضامر الذي كان يقوده امام الصندوق .

انتظم الضابط والعمدة والجنود وبضع من الاهالي صفا .. وارتفع صوت الشيخ الواهن بالتكبيرات .. تكبيرات متتابعة تبدو بلا فائدة احيانا . ثم سكن هو ايضا . رفع قامته وظل يحدق عبر التل والمقابر. لعله كان ينتظر شروقا او بعثا . ثم انهى الصلاة بسرعة متجهمة. وعندما هبط الحفار واستعد للتلقي اقتربت اللحظات الختامية ..

ارتفع الصوت الناعي الغريب يبكي كل الشواهد وكل القبور .. يوسف يا ضيا العين .. يا ضيا العين .. والشيخ الضرير يحاول رفع صوته بالوصايا الاخيرة .

ـ واخبرهم يا عبدالله .. انك عشت مسلما ..ومت مسلما .. واخبرهم يا عبدالله ان هناك الها واحدا .. واخبرهم يا عبدالله .. يا عبدالله ..

وضاع كل شيء ..

لمس العمدة ذراع الضابط :

ـ هذا هو اخوه ..

اشار نحو قبر بعيد .. بدأوا يلقون التراب في الحفرة الفاغرة. بكى احد الجنود فجأة بحرقة وبصوت عال .. ربت واحد من الاهالي فوق كتفه . نظر الاب العجوز حوله مستغربا وطلب الانصراف للمرة الاخيرة .. ملأت الام قبضتها بالتراب .. رفعتها عاليا كأنما تشهد الجميع .. سقط فوق رأسها .. سقط فوق راس شيخ الغفر . نفضه وهو يتمتم بكلمات الاستغفار . ونظر الضابط نحو القبر البعيد . كان هناك شخص ضخم جالسا .. يبكي في هسترية عالية . يهبش التراب .. يلوك الصبار .. وكان عاريا تماما ...

القاهرة

محمد المنسي قنديل

روايـات وقصص

من منشورات دار الآداب :

طواحين بيروت	توفيق يوسف عواد
أولاد حارتنا	نجيب محفوظ
الحي اللاتيني	سهيل ادريس
اصابعنا التي تحترق	» »
الخندق الغميق	» »
رحيل المرافىء القديمة	غادة السمان
ساعات الكبرياء	ادوار الخراط
العيون	سليمان فياض
احزان حزيران	» »
الزحام	يوسف الشاروني
الحزن يموت ايضا	يوسف شرورو
زورق من دم	» »
فارس مدينة القنطرة	عبدالسلام العجيلي
ثم تعود الموجة	ديزي الامير
عن الرجال والبنادق	غسان كنفاني
رحلة الخفاش	محمد رؤوف بشير
الارض حبيبتي	عبدالكريم غلاب
حكايا للحزن	اديب نحوي
جومبي	» »